

الفنون الشعبية والتنمية الاجتماعية

من المعروف ان الفنون الشعبية تشمل كل تراث الانسان
جيلاً عن جيل مما يتصل باعماله وافكاره وفنونه بحيث لا تخلو ظاهرة من مظاهر حياة البشر في
مأكله وملبسه واعماله المثمرة وملاهيها الا وتتصل بهذا الفن . يقضي الشعب ذلك الانتاج الى
وساقتصر بحول الله في هذا البحث على الناحية المسموعة
من هذا الفن والحركات التي تتصل بها واقدم في شأنها بعد التجارب التي
قامت بها على الصعيد الوطني والدولي علي اساهم في وضع مخطط عربي في مسيرتنا
اليومية على درب الحياة نستتبع به للحفاظ على هويتنا العربية الاسلامية ونواصل
بناء المجد الشامخ من الحضارة الانسانية الذي بناه الاسلاف وضحوا بالنفوس
والنفوس ليبقى مشعا ينير البشرية جمعاء في مختلف قارات الدنيا رغم المخططات الشيطانية
التي وضعها الاعداء والتي باءت وستبوء بالفشل ان شاء الله كلما وكما واعين متضامنين محافظين
على حضارتنا وديننا الحنيف .

وللفنون الشعبية مدرستان : اولاهما تدخل تحت اسم "الفلكلور"

وهي الكلمة الانكليزية المركبة من (لور) علم (فلك) الشعب اي حينما استعملها العالم (طومس) W.J.Thoms

المعروف باسمه المستعار (انبوز مرتون) Ambrose Merton سنة 1846م

للدلالة على آثار وآداب الشعوب وبعد (الانكلوسكسون) قبل الفرنسيين هذه العبارة وخصوها
لدراسة تقاليد والبسة الشعوب القديمة التي تعيش في الحضر الحاضر وترى هذه المدرسة ان من
خصائص الفن الشعبي المسموع وما يتبعه من حركات ورقصات ان لا يكون منسوبا
الى مؤلف معين معروف بل يعتبر من انتاج الشعب او القبيلة التي تمارس تلك الفنون باعتبارها
مظهرا من مظاهر ثقافتها الاصلية التي يدوب فيها الاشخاص لفائدة المجموع والخاصية الاخرى لهذه
الفنون تتمثل في عدم وجود وسيلة مادية كالكتابة وغيرها للحفاظ عليها بل تتوارثها
الاجيال مباشرة بواسطة السماع والرؤيا .

وفي ذلك ضمان للحفاظ على الاصاله مع اضافات جزئية يقوم بها الاشخاص

بدون شعور تجعل هذه الفنون قد جمعت مساهمات الاجيال التي تعاقبت عليها فامتازت بانتمائها

الى كل الاحقاب التي مرت بها واستفاد منها في الارض من ابتكارات الناس الذين
واكبوا تلك الاحقاب.

والمدرسة الثانية التي تزعمها (دجون ميار) John Meier سنة

1906 لا تشترط عدم نسبة الانتاج لشخص معين بل تكفي بان يتبنى الشعب ذلك الانتاج الى

درجة تجعله ينسي نسبه ويصبح منتسبا اليه يعبر عن طابعه وعن احساسه وان يكون الانتاج

قد صيغ للشعب من لدن مؤلفين علماء او اميين فحفظه افراد الشعب وتناقلوه جيلا عن جيل مثلما

كان الشأن بالنسبة للتهايل (لا اله الا الله، الله اكبر، الله اكبر، الله اكبر وسبحان الله والحمد

لله ولا حول ولا قوة الا بالله) التي لحنها الفنان التركي الشيخ مصطفى العتري (1680 -

1711م) في مقام السيكاه والمتداوله في اغلب البلاد الاسلامية حتى الان وخاصة منها التي

ينتمي بعض افرادها الى المذهب الحنفي .

ونذكر من ذلك ايضا العديد من الباستينات العراقية

التي لحنها المرحوم الملا عثمان الموصلي المتوفي سنة 1923 والقود الشامية

التي انتجها المرحوم احمد ابو خليل القباني المتوفي سنة 1903 الى ما نستمع اليه

من مصر الاغان من تلحين المرحوم سيد درويش مثل (ورني كل سنة مـ) و

او من تلحين المرحوم زكرياء احمد من مثل (يا صلاة الزين) ولسي سخيا في تونس عدة

اغان انتجتها في الاربعينات والخمسينات كثيرا ما يعلن عنها من التراث الشعبي غلطا

لانها اندمجت في الشعب وتغني بها مختلف الاجيال .

وقد كتب الباحث الفرنسي "تيارسو" Tiersot في دائرة

المعارف (لافنياك) سنة 1912 في هذا الموضوع قائلا بالخصوص "لا يعني عدم نسبة الاغاني

الشعبية لمؤلف او ملحن معين انها تكون من انتاج الشعب باكملة او انبثقت من تلقاء نفسها

بل هي من انتاج شخص او بعض الاشخاص الموهوبين الذين يتعرف الشعب من خلالهم على

هويته كما يقول المؤلف والباحث المجرى (بلا برتوك) BelaBartok انه لا وجود

لاي دليل يفيد ان الاشخاص الريقيين لم يقوموا بانتاج اي لحن؟

ومن المنطق ان يضم كل جيل عددا من المبتكرين الذين كانوا يخشون من

عدم اعتبار انتاجهم فيعمدون الى نسبه الى التراث الذي حفظوه على اجداد رواة الجيل السابق
وفي البلاد العربية
وفعلا لم يبدأ الاصداح بنسبة التاليف والتلحين لاصحابهما الا مع بروز التسجيل على الاسطوانات في
طالع هذا القرن وقد تاكد مع ظهور الاداعات وجمعيات حرق التاليف فيما بعد .

وتبرز الفنون الشعبية المتكاملة في العروص التي تقدم في المناسبات الاجتماعية
كحفلات الزفاف والختان وجمع الانتاج الفلاحي وغير ذلك من المناسبات فيظهر الشعر والاغنية والعزف
على الآلات الشعبية والرقص ومختلف الالعاب في اجمل انواع اللباس والحلي الشعبية، وتقدم انواع
الاطعمة والحلويات الشعبية المتوارثة وترى الشيخ وخاصة العجائز يفقدون كل ذلك لما اصابه من
بعض التغيير وهي ظاهرة تبرز مع كل جيل .

وتقدم تلك الحفلات في الساحات او في فناء البيوت وغالبا ما تكون العروص
بمناوبة القطب الذي يلتف حوله كل الحضور .

ومع التطور تحولت هذه العروص الى الركب ثم الى الشاشة الكبيرة والصغيرة

ولا يخفي ما يحدث في ذلك من تغيير قد يمس باصالة الفنون الشعبية ولذلك نظمنا في السبعينات
مؤتمرا دوليا حول هذا الموضوع اسفر عن عدة توصيات بعدم تغيير الجوهر بتاتا وعدم تغيير طرق العرض
الا بما يوجبه الركب من التوجه الى ناحية واحدة حيث يوجد الجمهور وكذلك بتصوير العروص
في اماكنها الاصلية مع ابراز المحيط الذي تقدم فيه واستثمار الكمرا لابرار الجزئيات في اللباس وفي
الحركات التي قد لا تنتبه اليها العين المجردة .

وانتفعت الفنون الشعبية بالتسجيل السمعي قبل ان ياتي التسجيل البصري

وقد حافظت لنا الاسطوانات على اصوات واداء ابرز المجدودين والمنشدين والعازفين فاستمر اشعاعهم
وانتفعت بهم الاجيال التي لم تدركهم ثم قام الباحثون بتدوين آثارهم المسجلة ونشرها في الداخل
والخارج وبرز عقب ذلك عدة كتب ومجموعات للتراث الفني في مختلف البلاد العربية والاسلامية وقد
تمكنا في تونس من نشر جميع تراثنا الموسيقي التقليدي اعتمادا على ما سجلناه في عدة مؤتمرات وطنية
شارك فيها جميع شيوخ الفن من مختلف انحاء البلاد صار اغلبهم الى عفو الله وبقيت آثارهم حية متداولة
في المدارس والمجموعات .

وقد شاركنا في تأسيس معهد دولي للموسيقى المقارنة في برلين الغربية في نطاق منظمة اليونيسكو في الستينات انجزنا بواسطته عددا كبيرا من الاسطوانات لمختلف البلاد الغير اوروبية لحثها على العناية بتراثها وللتعريف بهذا التراث على المستوى العالمي وقد حققنا بذلك تكسير جدار مركبات الاستعلاء التي كانت لدى الشعوب الاروية اعتبارا لقوتها المادية التي مكنتها من استعمار اغلب شعوب العالم وكذلك الذي لمركبات النقص التي اسبلت على شعوبنا لنفس الاسباب.

وشاركنا في نفس الفترة في تأسيس معهد دولي للتنمية الثقافية بالوسائل السمعية البصرية "بفيانا" عني بالخصوص بادخال الفنون الشعبية وطرق اخراجها في الاذاعة والتلفزة والسدما ونحن مستمرين في النشاط ضمن هذين المعهدين ونرجوان تعزيز صفوفنا فيهما باشتراك اكبر عدد ممكن من البلاد العربية.

ويسرني الاشعار باني قمت في نطاق تجارب هذين المعهدين بانجاز عدة حصص تلفزيونية للتعريف باغانينا التقليدية والشعبية من تقديم تاريخها ومناسباتها هشت هذه الحصص بتونس وبالمملكة العربية السعودية وانا الآن بصدد تحقيق حصة اذاعية اسبوعية بتونس في هذا المجال مستمرة منذ اكثر من سقتين ويسجلها الشبان لحفظ محتواها كما انجزت سبعة وثلاثين حلقة من نفس الموضوع ترجمت للفرنسية والاسبانية والفلانند وبشت بالجزائر وفرنسا واسبانيا وبلجيكا.

وانجزت سنة 1975 شريطا سنمائيا عنوانه (المنستير 75) تناولت فيه تاثير الفنون الشعبية على النهضة الاجتماعية وذلك بطلب من منظمة اليونيسكو تحول في اغلب دور الثقافة بفرنسا وبالكندا علاوة عن تقديمه بمصر

واهم عنصر في ارتباط الفنون الشعبية بالتنمية الاجتماعية هو الحفاظ عليها حية متداولة عبر الاجيال تعزز بها الشعوب وتكبر الرواد القائمين عليها ليستلم منهم الشباب مشعل هذه الفنون باعتبارها تعكس الحضارة الانسانية الحقيقية.

وقد تمت في تونس منذ امد بعيد وخاصة عند تاسيس وزارة الشؤون الثقافية سنة 1961 على ايدي الاخ الاستاذ الازلي القليلي بتجربة كانت ناجحة والحمد لله حيث اسسنا لهذه الفنون مهرجانا في كل ولاية (محافظة) نستعرض اثناءه جميع تلكم الفنون ونجيز فيه الفرق والافراد التي تحافظ على اصالة هذه الفنون في هندام لائق وتقديم جذاب.

ثم اعددنا لكل صنف من اصناف هذه الفنون مهرجانا وطنيا تشارك فيه الفرق الفائزة على مستوى الولايات (المحافظات) نذكر منها بالخصوص:

(1) مهرجان ليلة القدر اثناء شهر رمضان المعظم بصريح الصحابي الجليل سيدنا أبي لبابه بمدينة قابس وهو خاص بحفظ وتجويد القرآن الكريم .

2 - مهرجان المولد النبوي الشريف بصريح الصحابي الجليل سيدنا أبي زمعة البلوي بمدينة القيروان، ويجمع بين المباراة في تجويد القرآن الكريم وانشاد المدائح النبوية على الصعيد الوطني ويشارك فيه ضيوف من ابرز المجوידين من اغلب البلاد الاسلامية وفرق المدائح من بلدان المغرب العربي وفرق المولد من تركيا .

3 - مهرجان للشعر الشعبي يتبارى فيه الشعراء من كامل انحاء الجمهورية بثلاثة قصائد اثنان منها في مواضيع تقليدية والثالث في موضوع اجتماعي من مشاكل الساعد ويقام هذا المهرجان كل سنة في احدى الولايات .

4 - مهرجان الفروسية الشعبية ويقام كل سنة في احدى الولايات اثناء الخريف وقد حولنا له التقاليد القديمة التي يقدم اثناءها الاخوة الريفيون الهدايا والذبايح الى اصرحة الاولياء الصالحين بعد الحمام، واذكر انه صادفنا عام به مرض فاشترطنا التعقيم لحضور المهرجان واذنا وزارة الصحة تعقم عشرين الف مواطن في يوم واحد بهذه المناسبة وقد كان هذا المهرجان فرصة طيبة للعناية بالخيل العربية الاصلية وللحفاظ على صناعة وتطريز السروج والبسة